العلم والدين

أيهما يجب أن يكون ميزاناً للآخر

لعل من الضروري أن أشير، بين يدي هذا البحث، إلى تصور خاطئ، يقع فيه كثير من الكتاب والباحثين، بصدد الموازنة بين الدين والعلم:

إنه ما يتوهمونه من أن جوهر كل من العلم والدين يتنافسان دائماً على خطين منفصلين متوازيين، وينتهي كل منهما إلى غاية معينة!..

وطبيعي أن يستلزم هذا التصور، من أصحابه، عقد موازنة بين هذين الخطين، وأن يتساءلوا فيما بينهم: أيهما أجدى وأصوب: اتباع خط الدين، أم التحول عنه إلى خط آخر؟.. ولا بد من أن يثور من ذلك الجدلُ والخصامُ، ثم لا ينتهي الأمر بأصحاب التصور إلا إلى أحد هذين المذهبين، ويمضي أنصار كل منهما في نقض الآخر وتسخيفه!..

أما أحدهما فيرى تفضيل خط الدين على ما يقضي به العلم، ويرفع في سبيل ذلك شعاراً اسمه تخليص الدين من سلطان العقل!... وأما الآخر فيرى تفضيل العلم على الدين، ويرفع في ذلك شعار العلمنة أو العلمانية.. ويُسمَّى الفريق الأول في نظر

الفريق الثاني غيبيين أو اعتقاديين، كما يسمى الثاني في نظر الأول كفرة أو ملحدين. وتعد ربوع الغرب الأوربي والأمريكي الحلبة الواسعة الأولى لصراع هذين المذهبين اليوم.

وليس ظهور هذين المذهبين المتصارعين إلا ثمرة لتصور أن الدين في جوهره أياً كان نوعه، إنما يسير على خط مستقل موازٍ لخط العلم وما يقضي به، أي فهو لا ينطلق معه من بداية ولا ينتهي معه إلى نهاية.

وأقول: لئن كان هذا التصور صحيحاً، فما من شك أن على العاقل ألا يتردد في اختيار طريق العلم وحكمه، وما من ريب في أن عليه أن ينبذ أي خط آخر منفصل عنه أياً كان اسمه ومهما أُضفِيَ عليه من سيما القداسة والتقدير، ذلك لأن من أرقى سمات الإنسان أنه لا يخطو الخطوة الأولى في تعامله مع الكون إلا بهدي من عقله، وإنما يحيا العقل بروح العلم وحده.

❊ ❊ ❊

ولكن، هل صحيح أن الدين في جوهره (وإنما نعني هنا المعنى الكلي للدين) إنما يسير على خط مستقل يوازي خط العلم؟ الحق أن الأمر ليس كذلك. بل إن هذا التصور ينطوي على شرود بالغ عما يقضي به منهج النظر والبحث العلمي.

ذلك لأن الباحث إذا أسلم عقله لقواعد العلم، وقيد نفسه بمنهجه وضوابطه، لا يبتغي عنه بديلاً ولا يتذرع به إلى هوى يميل إليه، ثم واصل سيره على صراط العلم على هذا الأساس،

فلا بد من أن يسلمه هذا الصراط إلى ضرورة الخضوع لواقع لا مردّ له، وهو بجملته ما يسمى بالدين (أي منتهى الانقياد والخضوع) بقطع النظر عن الدخول في تفصيل التعريف به أو الحديث عنه. وهذا ما سندخل في بيانه الآن.

إذن، فخطأ كبير ذلك التصور الذي يقضي بأن للدين سبيلاً مستقلة يناكب بها سبيل العلم.. وخطأ أكبر أن نعقد أي موازنة بين هذين السبيلين الوهميين، لنهتدي إلى الأجدى منهما!.. إذ لا ريب أن الميزان الوحيد أمام حركة الفكر الإنساني إنما هو العلم وحده. وليس للإنسان العاقل في الخروج عن هذه الحقيقة أي اختيار.

غير أنا نقول - من منطلق هذه الحقيقة ذاتها -: إن على الإنسان إذا سار في طريق العلم، ألا يقف منه عند أي مرحلة من مراحله أو ثمرة من ثماره. بل عليه أن يواصل السير والبحث ليتبين النهاية التي سيسلمه إليها ذلك الطريق الهادي، مجرداً نفسه عن أي عصبية أو ميل لهوى من أهواء النفس، موطناً نفسه أن يستجيب لمقتضيات العلم، وأن يخضع كيانه لأحكام تلك النهاية التي تقف عندها رحلةُ العلم أياً كانت.

فإذا فعل الإنسان ذلك، فما من ريبٍ أنه سيتلاقى وجهاً لوجه مع الدين الحق، وسيجد أنه الثمرة الأخيرة الكبرى لغراس العلم وشجرته الباسقة الضاربة جذورها في تربة الفكر والعقل.

وما الذي يجب أن يصنعه الإنسان، إذا اكتشف هذه الحقيقة، على درب بحثه العلمي؟.

واضح جداً أن من مقتضى الانضباط بأصول العلم ومنهجه أن يدين الباحث بالولاء لتلك الحقيقة. وهذه الدينونة بحد ذاتها ليست ممارسة لعمل علمي، ولكنها تطبيق عملي لأهم مقتضياته.

إنك تسبر أغوار الأرض بالبحث العلمي، فتقع على ثروة في باطنها، فتقبل عليها وتستغلها وتستفيد منها.. من الواضح أن هذه الاستفادة بحد ذاتها ليست ممارسة لجهد علمي، ولكنها نتيجة منطقية وعملية للدراسة العملية، وكما أن من الخطأ أن تضع تجارتك بهذه الثروة على خط مستقل يوازي خط البحث العلمي في باطن الأرض، ثم توازن بينهما فتقول: إن البحث العلمي أجدى وأصح من السعي التجاري - كذلك من الخطأ أن تضع الدين الحق على خط مواز لخط العلم ثم توازن بينهما وتقول إن العلم أفضل من الدين.

❊ ❊ ❊

ولكن ما الدليل على أن السير في ركاب العلم، يوصل صاحبه أخيراً إلى محراب الحق، ويفرض عليه الخضوع لسلطانه؟ وكيف يتم ذلك؟

إن حديثنا هذا لا يتسع لإجابة مفصلة عن هذا السؤال، إلا أنه لا بد من بيان، ولو جاء موجزاً، تتضح به رابطة العلم بالدين، ويتجلى من خلاله كيف أن الوصول إلى الدين أهم غاية تكمن في طريق البحث العلمي المتواصل الصحيح.

يجب أن نعلم، قبل كل شيء أن العلوم ليست في حقيقتها

إلا أجزاءً من كل واحد، لا يستقل بعضها عن بعض، فَصِلَةُ ما بينهما كصلة الفصول المتعددة من الكتاب الواحد، لا يتجلى في الذهن مضمون حقيقي لأي منها، إلا استناداً إلى معرفة ما تضمنته الفصول الأخرى.

فعلم الاجتماع مثلاً، وثيق الصلة بعلم التاريخ، وعلم التاريخ موصول النسب بالتاريخ الطبيعي، وهذا بدوره شديد الصلة بالعلوم الطبيعية المختلفة.. هذه العلوم ترسم بدورها إشارات استفهام لا يتصدى لها إلا علم الفلسفة، وينتهي الأمر بهذا العلم والذي قبله إلى جدار هائل لا يمكن اختراقه، ألا وهو جدار النواميس الكونية الثابتة، والتي تدور على محورها أحداث هذا الكون وتطوراته.

وهي نواميس لم ينل العلم منها سوى الوصف لأغشيتها ومرئياتها الظاهرة، دون أن يملك معرفة لكنهها أو قدرة على أي تبديل أو تغيير فيها، وإليك الدليل على ذلك:

لقد تقدمت المدارك البشرية العامة تقدماً كبيراً، ولقد تهيأ لإنسان الحضارة الحديثة من أسباب العلوم والمعارف ما خيل إليه أنه حقق حلماً لم يحلم به من خَلَوْا قبل.. ومع ذلك فإن إنسان هذه العلوم كلها لم يستطع أن يزحزح شيئاً من تلك السنن والنواميس الكونية عن مكانه، فضلاً عن أن يقوى على نسخه أو تبديله!..

فلا تزال شقة ما بينه وبين المشيب وضعفه كما هي، لم تسعفه علومه في إطالة أمدها، فضلاً عن أن تسعفه في القضاء عليها..

ولا يزال، على الرغم من كل المنجزات العجيبة التي وصل إليها، يموت كما تموت أي ذبابة ضعيفة في الكون.. بل لا يزال أمد ما بين ولادة الإنسان وموته كما هو في جملته.

إنك تلاحظ أن كلمة (الجيل) لا تزال تحمل مدلولها اللغوي القديم ذاته: دفعة من البشر تمر فوق جسر هذه الحياة، ضمن ميقات زمني لا يتجاوز مئة عام تقريباً.. أي إن شيئاً من العلوم الحديثة للطب والصحة ورعاية الأبدان لم يستطع أن يتدخل لتعديل هذا الميقات الزمني المحدد لعمر الجيل فيجعله مثلاً مئة وخمسين عاماً..

ولا يزال إنسان الحضارة والعلوم الحديثة اليوم، مضطراً إلى محاكاة ما كان يفعله أجداده السابقون من قبل: يستجدي من السماء شرابه ومن الأرض قوته ومن ضروع الأنعام غذاءه، فإذا شح بالعطاء هذا أو ذاك، استبد به القلق ونال منه الهلع ووقع ضعيفاً بل صريعاً بين براثن الجوع والظمأ!..

ثم إن هذا الإنسان كلما التفت إلى ذاته يتأمل فيها، لم يدرك من هذه الذات إلا جملة ظاهرات وعلاقات تختفي وراءها أسرار عجيبة لا يخترق إليها علم، ولا يصل إلى كنهها سلطان جهاز ولا فكر!.. لقد بذل كل ما أمكنه من جهد في سبيل أن يعلم شيئاً عن حقيقة الروح التي تسري في كيانه، فانقلب من سعيه جاهلاً لم يأت بطائل، وأذعن الجميع بعد تجربة ومحاولة دائبتين، بأن الروح شيء يستعصي على العلم وطبيعته، ويند عن فكر الإنسان وفهمه!..

أجل، فلقد أذعن بذلك حتى الماديون الذين قرروا - واشتهوا أن يصدقهم الواقع - أن الحياة من مادة انطلقت وإليها تعود، وإليك ما يقوله الإمام الأول للمادية الجدلية بعد ماركس، إليك ما يقوله أنجلز في كتابه (أنتي دوهرنغ): (إن العلم الطبيعي لم ينجح بعد في إنتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى، وفي الحقيقة إنه لم ينجح بعد حتى في إنتاج الهيولى البسيطة أو الأجسام الآحينية الأخرى من العناصر الكيميائية، وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة)[١].

وينقل لينين تأكيداً لهذا الكلام عن فيورباخ في تعليقاته الفلسفية المشهورة[٢].

ولقد تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية إلى اليوم تقدماً كبيراً، ولكنها لا تزال فيما يتعلق بمسألة النواميس الكونية عموماً وسر الحياة أو الروح خصوصاً، باقية وواقفة عند حدودها السابقة القديمة من الجهالة والحيرة[٣].

هذا كله بالإضافة إلى ما يراه المتأمل في هذه المكونات من كثرة هائلة تنتهي في الانسجام إلى وحدة لا انفصام لها، ومن تلاقٍ عجيب فيما بين مظاهرها المتنوعة، على تحقيق غايات محددة ضمن نظام دقيق لا يلحقه أي اضطراب أو شذوذ، حتى

(١) أنتي دوهرنغ، ترجمة فؤاد أيوب، ص٩٠.
(٢) الدفاتر الفلسفية للينين، ٢/ ٥٧.
(٣) انظر كتاب قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم، ص١١-٢٣.

openkanaan.com

ألجأ ذلك أئمة المادية الجدلية إلى أن ينعتوا الطبيعة بالعقلانية، وأن يطلقوا على ما يبدو فيها من ظاهرة العلة الغائية اسم: عقلانية الطبيعة!!..

إذن، فالعلم يوصل الإنسان من خلال تبصيره بهذه الحقائق وأمثالها، إلى يقين بأنه مقود في هذه الحياة وليس قائداً، محكوم وليس حاكماً، يتحرك ولكن بمقدار طول الزمام المثبت في عنقه، ويتصرف ولكن ضمن نطاق الحكم الذي أبرم في شأنه، ومن ثم فإن العلم يسلم الإنسان إلى يقين بأن من وراء هذا الكون مكوناً أبدع نواميسه، فهو يمسكها من تدبيره وقدرته في قبضة عجيبة لا تُغلب، وبأن ما يسمى بعقلانية الطبيعة ليس في الحقيقة العلمية إلا مظهراً لتدبير ذلك الإله الذي دبر فأحكم تدبيره.

فإذا قرر العلم ذلك، فقد أسلمنا إلى يقين بوجود الله عز وجل، وإلى يقين بأنه موصوف بكل صفات الكمال، منزه عن سائر صفات النقصان.. ثم إن العلم يقف عند ذلك الحد ليدلنا على تتمة الطريق وكيفية متابعته، وهو الآن الإصغاء إلى خطاب هذا الإله وتعاليمه من خلال الرسل الذين بعثهم والكتب التي نزلها عليهم، ثم ما أمكن من الجهد والوسع لتنفيذ هذه التعليمات والأوامر.

ذلك لأن الإله الذي أبدع مكوناته على هذا النظام لا يعبث في خلقه ولا يتعسف في حكمه، ولا يأمر إلا بما يأمر به الرشد، ولا ينهى إلا عما فيه ضلالة وغي.

وهكذا يتبين ما أوضحناه، من أن الدين الحق نهاية في طريق العلم، وليس خطاً يناكبه ويوازيه، وأن إقبال الإنسان إلى الدينونة له ليس إلا تحصيلاً لثمرة العلم، وهو يفوق في القداسة ممارسة أي جهد علمي بحد ذاته.

❊ ❊ ❊

والآن، وقد أوغل الإنسان في الطريق الذي أسلمه إليه العلم ودفعه فيه، ألا وهو طريق الدينونة لسلطان هذا الإله الذي خلق.. فقدر.. فسوى.. بأي ضياء يجب أن يستعين ليضمن لنفسه سلامة المسير، وليطمئن إلى أنه لم يتنكب عن جادة **الحق التي ترضي الله عز وجل**، وإلى أنه لم يحش ذهنه بتصورات ومعتقدات لا أصل لها؟.

والجواب: إن الضياء والميزان هنا لا يمكن أن يتمثلا - كما أوضحنا آنفاً- إلا فيما تضمنه خطاب الله لعباده من إخبارات وأحكام، وقد تلاحقت هذه الخطابات على مر الأجيال عن طريق الرسل الذين اختارهم الله تعالى ليبلغوهم أوامره وأحكامه، وكان آخرها ذاك الخطاب الذي أنزله الله على آخر رسله وأنبيائه محمد عليه الصلاة والسلام. إلى العالَم أجمع.

وهكذا فقد أسلمنا البحث العلمي إلى صرح هذا الدين.. ونظرنا فرأيناه متمثلاً في التعاليم التي أرسلها الله إلى عباده عن طريق رسله وأنبيائه.. وتأملنا فرأينا هذه التعاليم تبدأ بتحذير الإنسان من اعتناق أي مبدأ لا تدعمه الدلالة العلمية، ولا يرفده

العقل المتبصر، ومن أهم النصوص المحذرة من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٣٦]، وتنفيذاً لهذا التحذير المتكرر في كتاب الله وسنة رسوله، أقام علماء المسلمين ثلاثة أصول من المناهج العلمية الدقيقة، ضمانة لتحصين الفكر الإنساني ضد أي زغل في الذهن أو خطأ في الحكم والاعتقاد:

أولها: المنهج العلمي العام للبحث عن الحقائق على اختلافها، وعمدته المنطق وأصول البحث والنظر.

ثانيها: المنهج العلمي الخاص بتفسير النصوص، وهو ما يسمى بقواعد علم الأصول أو قواعد تفسير النصوص.

ثالثها: المنهج العلمي الخاص بضبط الخبر والإسناد، وهو ما يسمى بعلم مصطلح الحديث وفن الجرح والتعديل.

وفي مكتبتنا الإسلامية اليوم ذخر كبير يتناول بالشرح والتحليل كل هذه المناهج الثلاثة التي تعتز بها الحضارة الإسلامية أيما اعتزاز.

* * *

وعلى الرغم من كل هذا الذي أوضحناه، هنالك من يتوهم أن الدين قائم في جملته على الإيمان بغيبيات بعيدة عن ضوابط العلم وموازينه!..

وإني لأقول: إن هذا الزعم في حق الإسلام لغو، لا يرتكز على أي حجة علمية.

بل إن قائله يجعل من نفسه أبرز مثال لمن يسلم يقينه حقاً إلى وهم غيبي قفزاً فوق براهين المنطق والفكر العلمي!..

إن كان مقصود هؤلاء الناس بغيبيات الدين أساسه الأول المتمثل في اليقين بوجود الله عز وجل، فقد أوضحنا أن سير العقل مع قواعد العلم وسلسلة أحكامه، لا بد من أن يُسْلِم الإنسانَ أخيراً إلى اليقين بوجود الخالق عز وجل، وما ألحد الملحدون في ذات الله تعالى إلا بعد أن تمردوا على الخط الذي كان يدفعهم إليه المنطق العلمي، ولا سيما فيما يتعلق بالدلائل التي تهدي إلى اليقين بوجود الصانع عز وجل، وذلك لقرارات سابقة ألزموا بها أنفسهم انتصاراً لهوى من الأهواء أو عصبية من العصبيات!..

وإن كان مقصودهم بها ما حدَّثَنا عنه كلام الله - بعد أن آمنا به بدلالة العلم والحكمة -من أخبار النشأة الثانية بعد الموت،وأمر الحساب والجنة والنار.. إلخ، فإن هذه الإخبارات ما استأهلت أن تحظى بيقين المسلمين إلا بعد أن تم عرضها على الموازين العلمية الثلاثة التي مرَّ ذكرها والتعريف بها، وأيدها كل منها أتم التأييد.

فمن ذا الذي يقدِّر العلمَ وسلطانَه، ويرى قرار المناهج العلمية الثلاثة في الإذعان لما تضمنته إخبارات القرآن وأحكامه، ثم يسعه أن يغمض العين عن ذلك كله، ثم يقفز من فوقه قفزاً ويتجاهله تجاهلاً تاماً، كي يتسنى له أن يقف بعد ذلك فينعت

المؤمنين بقرارات هذه المناهج العلمية، بأنهم غيبيون لا يضبطون عقولهم فيما يعتقدونه بشيء من دلائل العلم؟

ترى ماذا تعني كلمة (الغيبية) عند هؤلاء الناس؟.

أهي غيبوبة العقل عن الفهم؟.. أم هي غيبوبة الرؤية عن العين؟.. أم هي غيبوبة الشيء عن الحس؟.. أم تراها من قبيل غيبوبة الواقع في تلافيف الماضي السحيق، أم غيبوبة الآتي في ضمير المستقبل البعيد؟.

وأي نوع من هذه الغيبيات يعد، يا ترى بنظرهم، امتهاناً للعلم وازدراءً للفهم؟ أم إن جميعها محكوم عليه بالخروج عن قانون العلم وأحكامه؟ وكيف تم هذا الخروج وما دليله؟.

أليس من أخص واجبات هؤلاء الذين يتباهون بالعلم، أن يستعينوا بالعلم في الإجابة عن هذه الأسئلة، وألَّا يكونوا غيبيين أو عشوائيين في اقتحام الأمر على غير بصيرة ولا هدى؟

إن أحدهم ليسمع نشرة الأرصاد الجوية، وهي تخبر عما ستتعرض له البلاد من حرارة أو برد، فيصدق الخبر ويستيقنه، ثم يمضي يأخذ للأمر عدته، مع أنه خبر غيبي لم يظهر ولم يولد مضمونه بعد!..

وربما نظر أحدهم في مجلة أجنبية، فوقع فيها على خبر اختراع عجيب يعاد به الأموات إلى الحياة، فيستقبل الخبر بكامل يقينه، ويمضي يحدث الناس به كأنه تحت يده، أو كأنه يراه بعيني رأسه، دون أن يسأل نفسه: كيف يصح له في قانون

العلم الذي يعتز به أن يُسَلِّم بما لم تره عيناه، ولا علم له بكيفية منه ولا تحليل ولا تركيب؟ كل ذلك قفزاً فوق النظر في احتمالات الكذب في الأخبار واللبس في الموضوع والمبالغة في التصوير؟!..

ويشير الطبيب الذي يثق به الناس إلى الكأس التي يدنيها أحدهم من فمه، محذراً من شرب ما فيها لأن فيها شيئاً إن دخل جوفه هدده في حياته، فيقصي الكأس عن فمه ويرفع عنها يده ويستيقن أن فيها الهلاك، دون أن يتهم نفسه بالغيبية لأنه آمن بما لم يقع بعد، وتصور ما لم يولد بعد من غيبه المكنون ولم يخضع لبرهان التجربة والمشاهدة بالنسبة إليه شخصياً.

فكيف يصح لهؤلاء جميعاً أن يصفوا المسلمين بالغيبيين، إذ صدقوا بإخبارات الله تعالى عن أحداث قضى بإيقاعها في ملكوته الذي خلق، وها هم أولاء لا يكادون يتحررون عن سلطان هذه الغيبيات الصادرة أخبارها عن بشر مثلهم؟!..

إنني لا أستعجل فأعيّر هؤلاء الناس بالخضوع لهذه الأخبار الغيبية الشائعة فيما بينهم، كما يعيِّرون هم المسلمين بذلك.. ولكني أسألهم فقط: ما المنهج العلمي الذي اعتمدوه - وهم رجال علم - في طريق اليقين بتلك الأمور الغيبية التي ضربت المثل ببعضها؟.

إن هؤلاء الناس لو كانوا يقدّرون العلم حق قدره، لأدركوا أن الأمر في هذه المسألة قائم على منهج علمي ذي قيود وشروط..

ولو أنهم كلفوا عقولهم تحمل بعض الجهد في معرفة هذا المنهج، إذن لما أغمضوا أعينهم ووصموا إسلام المسلمين بالغيبية التي لا يعلمون شيئاً من مدلولها!..

وخلاصة الأمر أن المسائل المتعلقة بماض منصرم أو مستقبل لم يقع بعد، لا يُغني فيها ما يسمى ببرهان التجربة والمشاهدة، بل لا بد من الاعتماد فيها على الخبر الصادق، وإنما يكون الخبر يقيناً وصادقاً إذا توافر فيه شرطان اثنان:

أولهما: أن يكون مصدر الخبر موثوقاً به مقطوعاً بأنه أهل لأن يكون مصدراً له أمانةً وعلماً.

ثانيهما: أن يكون السبيل إلى ذلك المصدر سنداً من الرواة المتصلين إلى مصدر الخبر، على أن يكون كل حلقة في سلسلة الرواة جمعاً كبيراً من الناس يحيل العقل تلاقيهم على الكذب.

فإذا تحقق هذا الشرطان فلا شك أن مضمون الخبر يصبح حقيقة علمية لا مناص من قبولها واليقين بها.

وهكذا، فإن تواتر السند + توافر الصدق والأهلية بمصدر الخبر = يقيناً علمياً بالخبر الذي جاءك عن طريقه، على الرغم من أنه بحد ذاته أمر غيبي لم يقع بعد.

فإذا كان هذا الكلام واضحاً (وما إخاله يخفى على أحد) فإن المسلم لا يحمله إسلامه على اليقين بأمر غيبي، إلا إن كان خاضعاً لسلطان هذا القانون الذي فرغنا من إيضاحه، وما كان للإسلام الذي يقول دستوره ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾

[الإسراء: ٣٦/١٧] أن يكلف أتباعه بأن يغمضوا العين وينغضوا الرأس ويبتعدوا عن العقل، ليحملوا أنفسهم على اليقين بما لا يعلمون.

ثم إنها لمفارقة عجيبة أن يصدق هؤلاء الناس خبر داروين عن أصل الإنسان على الرغم من تحفظه وشكه في ذلك، كما صرح بشكوكه هذه في كتابه «أصل الأنواع» أكثر من مرة[1]، ثم لا يصدقوا إخبار الله عز وجل عن أصل الإنسان وأنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأنشأه في أحسن تقويم، على الرغم من أنه هنا خبر قاطع جازم بذلك، وهو هناك خبر مغموس في الريب، مع أن كلا الخبرين ينطوي على غيب يجثم وراء ماض سحيق لا تطوله تجربة أو مشاهدة أو حي!!..

ولكن أتريد أن تعلم سبب هذه المفارقة؟

السبب أن هؤلاء الناس آمنوا بداروين ووثقوا بأهليته وصدق فراسته وحدسه، إيماناً غيبياً لا ترفده أثارة من علم، في حين أنهم لم يؤمنوا هذا الإيمان بالفاطر الحكيم جل جلاله، على الرغم مما هو ماثل أمامهم من البراهين العلمية على ذلك، فآمنوا بحدس الأول وتخمينه ثم ذهبوا يسمونه علماً، وأنكروا إخبار الخالق جل جلاله ثم ذهبوا يسمونه غيبية وجهلاً..!

إذن ففرق ما بين المسلمين وهؤلاء الناس ليس كامناً في أن أحد الفريقين ينحط إلى الإيمان بالغيبيات دون برهان علمي،

(١) انظر: أصل الأنواع لداروين، ص٤١٢- ٤٤٧.

والفريق الثاني يأبى ذلك تقديراً منه للعلم... ولكن الفرق هو: أن المؤمنين بالله آمنوا بمصدر الخبر ووثقوا بصدقه، ثم وجدوا تواتر السند الناقل للخبر وارتفاعه إلى درجة اليقين، فآمنوا به علماً وصدقوه قانوناً والتزموه حقيقة لا مرد لها.. أما هؤلاء فقد جحدوا أو شكوا بوجود المصدر الأول، وهو الله عز وجل، فلم يبالوا بعد ذلك أن يأتي سند الخبر متواتراً أو مظنوناً، وجحدوا بالأمر كله إذ جحدوا بالمصدر الأول من حيث هو!..

وحديثنا مع هؤلاء إذن، ما ينبغي أن يكون متعلقاً بمسألة الغيبيات وموقعها من العلم واليقين، وإنما يجب أن يعود إلى البحث العلمي في الدليل على وجود الصانع عز وجل، يليه البحث في النبوات وبراهينها، يليه البحث في القرآن أهو كلام الله حقاً أم لا.. حيث نصل أخيراً إلى وفاق بأن هذا الذي يسمونه غيبيات لا يقرها العلم، حقائق محفوظة في وقاية تامة من حصن العلم والمنطق، لا ينفذ إليه أي موجب من موجبات الشك والارتياب.

❊ ❊ ❊

وأخيراً فهذا هو الإسلام.

قراره الأول والأخير، أن العلم الحقيقي هو الذي يجب أن يكون ميزاناً للدين، بل لأي شيء آخر، وليس العكس بأي حال من الأحوال.

فمن تديّن محاكاة وتقليداً، فتدينه في ميزان التكليف الإلهي

باطل، ومن اتخذ من شعار الدين ذريعة إلى غرض أو مصلحة، فهو صِنوُ ذلك الذي اتخذ من الكفر والإلحاد ذريعة إلى مثلها.

ولكن فلنعلم أن اليقين العلمي الذي يهيمن على العقل، لا يستلزم دائماً التصور الذي يهيمن على الخيال، ذلك لأن قدرة المخيلة على تصور الأشياء على حقيقتها، تظل دائماً متخلفة عن الطاقة العقلية لإدراكها، أرأيت إلى الضرير الأكمه (الذي خلق دون بصر): إنه يدرك وجود الشمس المشرقة يقيناً بعقله، ولكنه لا يقوى على تصورها في خياله، فلا يكون هذا العجز الثاني دحضاً لليقين الأول.

كذلك وجود الله عز وجل وما يتبعه من يقينيات متفرعة عن الإيمان به: لا مناص للعقل الحر من اليقين بهما، ولكن لا سبيل للخيال البشري إلى التقاط صورة صادقة عنهما، بل مما لا ريب فيه أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

ولهذه الملاحظة الإجمالية الهامة تفصيل علمي واسع هام، لا مجال لذكره في هذا المقام.

ولكنا مرة أخرى نصطدم بمن يصرون على أن المنهج العلمي الموصل إلى الإيمان بغيبيات الإسلام، ضلوع في الظلامية والظلام، في حين أنهم يصرون على أن المنهج اللاعلمي الذي سلكه داروين لاقتحام الغيب المتعلق بأصل الإنسان، استنارة رائعة بضياء الغيب، يصرّون على هذا مع علمهم بأن داروين عاد من رحلته الغيبية تلك بعشرين شكاً وشك!!..